بيروت قبل مائة سنة

اول رسالة كتبها الاب ريكادونا اليسوعي
بعد وصوله الى بيروت سنة ١٨٣١

عرّبها ونشرها فؤاد افرام البستاني

توطئة

من يَجُل اليوم في عاصمتنا ، فيُسرع خطاه في شوارعها المزدحمة ، وينقل طرفه في بناياتها الشامخة ، ويتفقّد مؤسساتها العصرية ، فيتحقق تلك الحياة السارية في جميع مناطقها ، ويعجب بتلك الحركة المتزايدة في مختلف اعمالها ؛ لا يمكنه بسهولة ان يتصوّر ما كانت عليه بيروت قبل مائة سنة . مدينة صغيرة ، بل بلدة لا يتجاوز سكانها العشرة آلاف الّا قليلًا يعيشون ضمن اسوار متداعية لا يتّسع محيطها عن الدائرة المحدودة اليوم بالمرفأ ، فباب ادريس ، فنقطة السور ، فالبرج ، فاول حيّ المدوّر . هكذا كانت تظهر بيروت قبل مائة سنة . نعرف ذلك من اقوال المؤرخين ، ومن رسائل مَن زارها من السيّاح اذ ذاك ؛ ومنهم الشاعر الفرنسي المعروف ألفونس دي لامرتين ، الذي نزل في بيت قائم في الجهة التي ندعوها في عصرنا حيّ مار مارون ، شمالي النادي الكاثوليكي . ولا يخفى ان هذه النقطة هي اليوم في قلب المدينة . اما قبل مائة سنة فكانت بعيدة عن بيروت كما يُستفاد مما كتبه الشاعر المذكور اذ قال انه نزل في « بيت منفرد ، على نحو عشر او خمس عشرة دقيقة عن المدينة » .

اما مظهر المدينة وزيّ اهلها اذ ذاك ، وعاداتهم في استقبال الضيوف ، وطرق معيشتهم ، فتظهر لنا ببعض جلاء من رسالة بعث بها الاب ريكادونا

اليسوعي الى اخوته الرهبان في رومة ، على اثر نزوله في ثغر بيروت سنة ١٨٣١ . وهو الاثر الذي رأينا تعريبه ونشره اليوم ، بمناسبة مرور مائة سنة على تجديد رسالة الآباء اليسوعيين في لبنان وسورية .

وصل اليسوعيون الثلاثة الى عاصمتنا في ١٣ تشرين الثاني ١٨٣١ ، فاستغربوا كلّ ما رأوه في اسواق المدينة ، وفي ازياء سكّانها ، وفي مرافق حياتهم ، وفي مناظر طبيعتهم ، حتى كانت ملامستهم الاولى للبلاد تُلخص بلفظة « الاستغراب » . ولا عجب في ذلك فان الشقّة كانت بعيدة جدًّا بين حياة الشرق وحياة الغرب اذ ذاك ، حتى كان ذلك البعد كثيرًا ما يجرّ الى المحاكمة . فبينما كان الشرقيون ، اذا دخلوا زائرين احد المنازل ، يخلعون احذيتهم ويحتفظون بعمائهم ، كان الغربيون يفعلون عكس ذلك ، اي يحتفظون باحذيتهم ويخلعون قبعاتهم . وبينما كان الشرقيون ، اذا جلسوا للطعام ، يبسطون الملاءة او الشرشف على الارض ويضعون فوقه الخوان ، «فصدر» الطعام ، كان الغربيون يأخذون بالعكس ايضاً فيضعون الخوان اولًا ، وعليه الشرشف ، فصحاف الطعام ... الى غير ذلك من الفروق التي قد نستغربها ، نحن اهل البلاد ، في عصرنا هذا ، فكيف بالافرنج قبل مائة سنة .

هذا ولو عاد اليوم الاب ريكادوتا الى بيروت ، لرأى ان اللبنانيين لم يضيّعوا وقتهم طول هذا القرن الكامل ؛ وانهم ، ان يكونوا استفادوا الشيء الكثير من المدنية الحقة والترقي الصحيح ، فقد كان لخلفائه من اليسوعيين في ذلك فضل لا ينكره الّا الغامطون للنعمة المتعامون عن الحقّ ...

الرسالة

وهاك ، في ما يلي ، ما رأيناه جديرًا بالذكر من الرسالة الاولى :

« ... انه ليطول الشرح كثيرًا ان اردت ان اخبركم بكل ما لفت نظرنا من الغرائب عند وصولنا الى هذا العالم الجديد : طبيعة شائقة ، وسماء متلألئة ، وهواء نقي ، ومناخ لطيف ، واراض بور تغطيها الرمال ، وبيوت صغيرة لا تكاد ترتفع عن سطح الارض . لا شوارع ، بل ازقة لا تكاد تصلح الّا

بيروت قبل مئة سنة

بيروت في الوقت الحاضر

لمرور الجمال . اما السكان فيظهرون بالاردية الواسعة الفاقعة الالوان ، وبالعمائم الضخمة ، والزنانير العريضة ، والقلابين المتدلية حتى الارض ، وبالكثير من الشراريب ، والشرائط ، والريش ، والاقراط المعلقة بالآذان والانوف والشعور ؛ ثم بالخناجر والقدّارات . وهم يحلقون رؤوسهم الّا خصلة من الشعر في قمّة الرأس يتركونها حتى تطول جداً . وكذلك يطلقون لحاهم وشواربهم التي تلفت الانظار بطولها . وهم ابداً عارو السيقان والاقدام حتّى الاغنياء منهم . وفي البلاد كثير من الخيل والجمال. ولكننا لم نصادف مركبةً واحدة ، ولا عجلة ، حتى ولا دولاباً .

وهناك ايضاً كثير من الامور الغريبة التي يضيق الوقت عن تعدادها.

ولم نكد نصل الى البرّ حتى دارت بنا حلقة واسعة من العمائم والخناجر والقدّارات . فذكّرني هذا المشهد بما حصل لابوينا مانيلر وستيلّا اللذين كانا اول المرسلين الى هذه البلاد. فانهما لم يكادا ينزلان ثغر الاسكندرونة ، لابسَين مثلنا الثياب الغربية ، حتّى احاط بهما القوم ، وقبضوا عليهما ، وقادوهما الى امام الباشا ، فرماهما في السجن . ثم كان من حسن حظّهما أنهما أُخرجا وأُرجعا الى الشاطئ فشُحنا على مركب انكليزي بعد ان حُرّم عليهما النزول الّا في برّ فرنسة. واني اعترف لكم اننا شعرنا بشيء من الخوف اذ رأينا القوم يحيطون بنا ، حتى ان اثنين من رفقائنا ، احدهما طبيب والآخر مصوّر ، لم يمكنهما اخفاء مظاهر الرعب الذي استولى عليهما.

ولما كان القوم يتبعوننا بكثرة ، اخذنا نسير مطرقي العيون ، مضحّين بالشهوة التي كانت تدفعنا الى التأمل بالجمال وبغيرها من الغرائب التي كنا نصادفها لاول مرة . وكنا نقصد ، في سيرنا ، قناصل الدول الاوربية لنوصل اليهم ما كان معنا من رسائل التوصية العديدة.

حينئذٍ تقدّم رجل كاثوليكي ، كان مختبئاً بين جمهور المسلمين ، فصافحنا وطلب منا ان نتبعه الى منزله . وكان قد ادرك من مظهرنا واماراتنا ، اننا نزيد في شيء عن السيّاح الاوربيين العاديّين . ولم يكن ليدور في خلدنا اننا نصادف صديقاً صالحاً كهذا الصديق. . . فتبعنا مضيفنا الكاثوليكي ، وكان

من كبار وجهاء بيروت غنى وكرامة . واسمه ايوب نصرالله ، ينتمي الى طائفة الروم ، ويتولى كتابة سرّ عبدالله باشا ، حاملاً لقب « المعلم » .

واذاع هذا السيد الفاضل بين جيرانه ومعارفه ان اليسوعيين عادوا الى الشرق ، ودعا الى منزله عدداً من الكاثوليك من مختلف الطوائف . اما نحن فكنا ، طبقاً لما أُلقي علينا من التعليمات ، نتنبه كل الانتباه لما يقوم به هؤلاء الزوّار من الواجبات ، كي نقلّدهم بدورنا على احسن ما يمكننا . فكانوا جميعاً ، دون ان يضعوا عمائمهم ، يجعلون يدهم اليمين على ركبتهم فعلى صدرهم ، فعلى فمهم ، فعلى جبينهم ، وينحنون حتى الارض تقريباً . وهذه طريقة التحية عندهم . ثم كانوا يجلسون القرفصاء مشبّكين سيقانهم على السجاد الدمشقي المفروشة به الردهة .

ونحن كذلك ، اذ دخل ثلاثة خدم حفاة الاقدام ، مرتدين البسة فارسية ذات اوان فاقمة ، فقدّموا لنا في اقداح صغيرة نوعاً من الشراب وافر الحلاوة لم نعهده من قبل . وبعد ذلك اتى احدهم بابريق مملوء قهوة غاية في المرارة ، والثاني بهرم من الفناجين الصغيرة لا يتجاوز احدها نصف البيضة كبراً وهي بدون صحون ، وتقدّم الثالث فكان يملأ الفناجين ويقدمها دون ان يضع فيها شيئاً من السكر . ولم يمض القليل حتى دخل عدد من الخدم يوازي عددنا ، حاملين غلايين طويلة كانت تصل الى الارض . فكانوا يولعونها ، ويسندون كلًّا منها الى صحن صغير موضوع على السجّادة ، ويدخلون طرف ماسورته في فم كل منا ، وهم في ذلك يستعملون يدهم اليمنى فقط واضعين اليسرى على صدرهم علامة الاحترام . وكان بين الغلايين المستقيم والمنعكف على اشكال غريبة . وكان يخدم النساء ، وهنّ يدخنّ ايضاً ، جوار سوداوات او سمراوات . وكنّا حتى الآن قد نجحنا تقريباً بمظاهر الواجبات وطرق المجاملات ، الّا في ما خصّ تشبيك السيقان اثناء القعود ، واستعمال الغليون . فلم نكد ننفخ بضع نفخات حتى شعرنا بدوار قوي دفعنا الى طرح الغليون جانباً ، مما اثار الريبة والاستغراب لدى جميع الحاضرين .

. . . دارت الاحاديث على كل شيء الّا اخبار اوربة او اخبار البلاد ؛

على كثرة المواضيع في هذه الشؤون... ولكن لم يعتبرنا مضيفونا الا كاصدقاء عاذيين راجعين من اماكن الاصطياف ، فاقتصروا ، في احاديثهم ، على تعابير المجاملة الجارية : كيف حالك ؟ وماذا تخبرنا ؟ وهم في كل ذلك يستعملون صيغة المخاطب المفرد ، كما هي العادة هنا. وكان من يصل من الزائرين يبدأون بخلع احذيتهم ، بل (بوابيجهم) الحمراء او الصفراء ، على عتبة الباب حيث يتركونها كما فعلنا نحن ايضاً.

... وكم اودّ ان انقل اليكم وصف كل ما حدث في هذا النهار الاول لوصولنا ، وفي ما وليه من الايام ، بل وصف الطعام الذي كنا نتناوله على الارض ، في الفضاء الطلق ، وكيف كنا نشرب جميعنا من اناء واحد ، ونمدّ ايدينا الى صحفة واحدة ، فنتناول الواناً من الطعام تظهر في بلادنا غاية في الغرابة. وكيف كنّا نضرب كلنا ، من وقت الى آخر ، على صحف الاكل ، ونفني صائحين : « نهارٌ مُبارك ! نهارٌ سعيد ! حفظكم الله ! واعطاكم الصحة وحفظها لكم ! ».

شاءت هذه العائلة الصالحة ، عائلة نصرالله[١] ان تضيفنا مدة خمسة عشر يوماً ، تعرّفنا في خلالها ، نوعاً ما ، طريقة المعيشة العربية . وكثيراً ما كانت الاطعمة تعاكس ذوقنا حتى اننا كنا نشمئز منها فنفضّل عدم الاكل . ولم تلبث ان اصابنا في الركب اوجاع مؤلمة كانت نتيجة قعودنا القرفصاء مدة طويلة على الارض فوق سيقاننا المشبكة ...

ومدينة بيروت اسلامية باجمعها على التقريب ، وفيها ثلاثة جوامع . والمشهد الطبيعي في ذاك المستطيل من الارض المتقدّم بين بحرين الطف وابدع من مشهد پوزليپ[٢] ... »

---

١) من ذرّية عائلة نصرالله في بيروت السيد سليم القرداحي، سبط المرحوم ايوب نصرالله . اما المنزل الذي استُقبل فيه الآباء اليسوعيون فباعته العائلة . ولكنه لا يزال قائماً على نحو مائة متر ، تحت كاتدرائية القديس جرجس المارونية ، الى ناحية سوق ابي النصر .

٢) پوزليپ : جبل في الجنوب الغربي من نابولي في ايطاليا ، مشهور بجمال مشاهده الطبيعية .